



قصة الفتية المغربيين

اتجهت بعض الأبحاث العلمية الحديثة إلى القول بأن المسلمين عرفوا أمريكا أن يكشفها كولومبس . وأشار أصحاب هذه النظرية إلى وجود كلمات عربية في لغة هنود أمريكا، وإلى أن كولومبس وجد في رحلته الثالثة زنجاً وذهباً إفريقياً في جزائر الهند الشرقية، وأن مدينة بعض الجماعات الوطنية في أمريكا تشبه المدينة الإسلامية إلى حد كبير^(١).

ولسنا نعرض هنا لبحث هذه النظرية، ولكننا لا نشك في أن العرب اتخذوا الأساطيل في المحيط الأطلسي الدفاع عن ملكهم في المغرب والأندلس . وطبيعي أنهم عرفوا شيئاً عن سواحل هذا المحيط وعن الجزائر غير البعيدة عنها . ولكن في بعض المصادر التاريخية العربية ما يشهد بأنهم حاولوا النفوذ إليه والتوغل فيه .

ومن ذلك حديث فتية من مدينة لشبونة حول القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، قاموا في المحيط برحلة جريئة، وعادوا منها بعد تجارب

(١) راجع مقال «عرف العرب أميركة قبل أن يعرفها أبناء الغرب» للأب أنستاس ماري الكرملی

(عدد ٢ مجلد ١٠٦؛ فبراير سنة ١٩٤٥ من مجلة المقتطف).

قاسية وأهوال شديدة. ولم يصلنا من أخبار هذه الرحلة إلا ما كتبه الشريف الإدريسي في كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق». وقد علق عليه الأمير شكيب أرسلان في كتابه «الحلل السندسية»، والأستاذ عبد الحميد العبادي في مقال عن قصة أولئك الفتية المغررين (أو المغربين؟) قال الإدريسي: «ومن مدينة لشبونة كان خروج المغررين في ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهأؤه... ولهم بمدينة لشبونة بموضع من قرب الحمة درب منسوب إليهم يعرف بدرب المغررين إلى آخر الأبد. وذلك أنهم اجتمعوا، ثمانية رجال كلهم أبناء عم، فأنشأوا مركبًا حمالاً وأدخلوا فيه من الماء والزاد وما يكفيهم لأشهر. ثم دخلوا البحر في أول طاروس الريح الشرقية (أي هبوبها) فجروا بها نحوًا من أحد عشر يومًا. فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش (أي الصخور التي لا يكاد يسترها الماء) قليل الضوء؛ فأيقنوا بالتلف، فردوا قلاعهم في اليد الأخرى، وجروا في البحر في ناحية الجنوب اثني عشر يومًا، فخرجوا إلى جزيرة الغنم، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل، وهي سارحة لا راعى لها ولا ناظر إليها. فقصدوا الجزيرة فنزلوا بها فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين برى، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها، فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها، فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها، فأخذوا من جلودها وساروا مع الجنوب اثني عشر يومًا، إلى أن لاحت لهم جزيرة، فنظروا فيها إلى عمارة وحرث فقصدوا إليها ليروا ما فيها. فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم في زوارق هناك، فأخذوا وحملوا في مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر فأنزلوا بها في دار، فرأوا بها رجالا شقرًا، زعروا شعور رؤوسهم، شعورهم سبطة وهم طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب.

فاعتقلوا فيها في بيت ثلاثة أيام. ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربي. فسألهم عن حالهم، وفيم جاءوا، وأين بلدهم. فأخبروه بكل خبرهم، فوعدهم خيراً، وأعلمهم أنه ترجمان الملك: فلما كان في اليوم الثاني من ذلك اليوم أحضروا بين يدي الملك. فسألهم عما سألهم الترجمان عنه فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالأمس من أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار والعجائب ويقفوا على نهايته. فلما علم الملك ذلك ضحك، وقال للترجمان خبر القوم أن أبي أمر قومًا من عبيدة بركوب هذا البحر، وأنهم جروا في عرضه شهراً، إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدى. ثم أمر الملك الترجمان أن يعدمهم خيراً وأن يحسن ظنهم بالملك ففعل. ثم صرفوا إلى موضع حبسهم إلى أن بدا جرى الريح الغربية فعمر بهم زورق، وعصبت أعينهم، وجرى بهم في البحر برهة من الدهر. قال القوم: قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها، حتى جئنا إلى البر، فأخرجنا وكتفنا إلى خلف، وتركنا بالساحل إلى أن تضحى النهار وطلعت الشمس ونحن في ضنك وسوء حال من شدة الكثاف، حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحننا بأجمعنا؛ فأقبل القوم إلينا فوجدونا بتلك الحال السيئة، فحلوا من وثاقنا وسألونا فأخبرناهم بخبرنا، وكانوا برابر، فقال لنا أحدهم: أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم؟ فقلنا. لا؛ فقال: إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين. فقال زعيم القوم: وا أسفى!. فسمى المكان إلى اليوم «أسفى» وهو المرسى الذى في أقصى المغرب».

وعلى كل حال فإن هؤلاء الفتية استطاعوا العودة إلى لشبونة، كما يؤخذ من سياق الكلام في الإدريسي، وحدثوا أهلها بأخبار رحلتهم؛ ولكن مواطنهم لم يروا فيهم إلا شباباً مخاطرين مغررين (أو مغربين، من الاتجاه إلى المغرب؟) حتى عرف الدرب الذى كانوا يسكنونه بهذا الاسم.

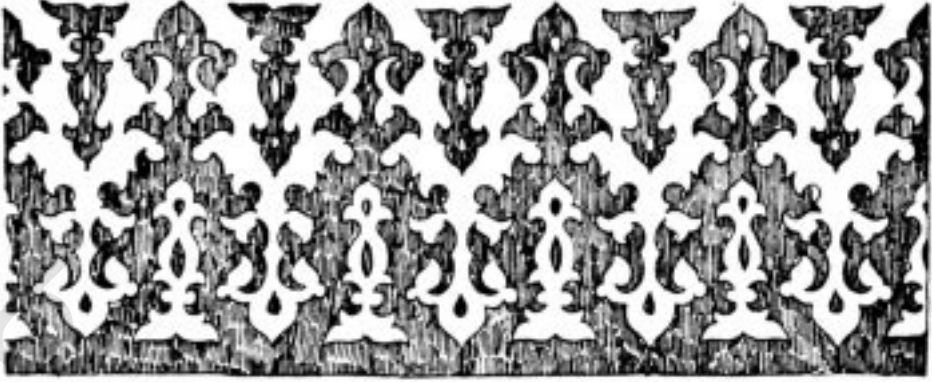
وإن تكن معالم هذه القصة صادقة، فإننا لا نستطيع أن نتبع سير هؤلاء الفتية لتبين الجزر التي وطئتها أقدامهم في هذه الرحلة؛ ولكننا نرجح أنهم وصلوا أولاً إلى مقربة من إحدى جزائر أزور Azores التي تبعد عن غربي البرتغال نحو ١٣٧٠ كيلوا متراً والواقعة بين خط ٣٧ وخط ٤٠ من العرض الشمالي وبين خط ٢٥ وخط ٣٢ من الطول الغربي. والظاهر أنها لم تكن مجهولة عند الفينيقيين والقرطاجنيين والنورمنديين والعرب، وإن نسب كشفها في القرن الخامس عشر الميلادي إلى الفلمنكيين في رواية إلى البرتغاليين في قول آخر. ولما انحدر الفتية إلى الجنوب وساروا اثني عشر يوماً فالمحتمل أنهم وصلوا إلى جزر ماديرا. وقد نقل الأستاذ عبد الحميد العبادي عن بعض العلماء الأوروبيين أن بهذه الجزيرة كثيراً من المعزقتات بنوع من العشب، هو السبب في مرارة لحومها. أما الجزيرة التي انتهى إليها المغرورون وقبض عليهم فيها، فلعلها إحدى جزر الخالدات أو كناري، التي تبعد عن الساحل الشمالي الغربي لإفريقية بنحو مائة كيلو متر والواقعة بين خطي ٢٧ و٢٩ من العرض الشمالي وبين خط ١٣ وخط ١٨ من الطول الغربي. والراجح أن هذه الجزائر كانت معروفة عند الفينيقيين ثم العرب وذلك قبل أن يكشفها الأوروبيون ثانية في القرن الرابع عشر الميلادي.

ولعل هذه القصة لم تكن مجهولة في العصور الوسطى؛ بل لعل كولومبس كان يعرفها، ويعرف قصصاً أخرى من أخبار من حاولوا ركوب المحيط الأطلسي وكشف غوامضه، ومن روايات بعض البحارة في السفن التي كانت تسيرها بعض البيوت التجارية إلى ساحل أفريقية الغربي وإلى بعض جزر المحيط الأطلسي، لجلب الذهب والعاج والأحجار الكريمة وغير ذلك. وكانت تلك البيوت التجارية تخفي أعمالها استئثاراً بالكسب، واحتكاراً للتجارة مع تلك الأصقاع.

وأكبر الظن أن هذه القصة أساس رحلة تنسب إلى راهب إيرلندي اسمه القديس براندان. توفي سنة ٥٧٨م؛ ولكن حديث رحلته لم يظهر إلا في القرن الحادي عشر الميلادي. والأرجح أنه خرافة، قامت على بعض عناصر من قصة الفتية المغررين، وعلى عناصر أخرى من الأخبار العجيبة المعروفة في أسفار السندباد البحري^(١)، فضلا عن قصص أخرى في الأدب الكلتى عن رحلات وهمية إلى ما وراء البحار، وقد اشتهر هذا الراهب بإنشاء عدة أديرة في إيرلندة. ويزعمون أنه أراد أن يبلغ الجنة التى جعلها الله مأوى لعباده الصالحين. أو أنه أراد أن يجد مكانًا قصيًا يعتزل فيه الحياة الدنيا، فركب سفينة ومعه سبعة عشر من زملائه الرهبان يقصدون إحدى جزر المحيط الأطلسى. ولعلهم وصلوا إلى جزيرة من جزر الخالدات؛ ولكنهم لم يستقروا بها بل عادوا إلى إيرلندة. وقص براندان ما شاهد من العجائب والغرائب في قصيدة طويلة يظن النقاد أنها ترجع إلى القرن الحادي عشر أو الثاني عشر بعد الميلاد. وقد ظل القوم يعتقدون بوجود جزيرة يطلقون عليها اسم هذا القديس، ويظنونها غربي جزائر الخالدات؛ بل كانوا يرسلون البعثات لكشفها حتى بدء القرن الثامن عشر.



(١) راجع- J. De Goeje: La legende de saint Brandan (tirez des actes du 8e Congres inter-national des Orientalistes, teun en 1889 a Stock-holm et a Christiania, Leyde.



محمد بن قوسلطان مالى

ومن قصص الرحلات الإسلامية المجهولة حديث سلطان مسلم ركب المحيط الأطلسى لكشف غوامضه؛ وقد جاء ذكره في كتاب «صبح الأعشى» للقلقشندي المتوفى سنة ٨٢١هـ (١٤١٨م) عند الكلام على مملكة مالى في السودان الغربي جنوبي بلاد المغرب.

وبيان ذلك أن الملك منسا موسى بن أبى بكر ملك مالى مر بمصر في طريقة إلى الحج في عصر الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٤هـ (١٣٢٤م) فأوفد السلطان الناصر أحد كبار موظفى القصر لاستقباله. واحتفى به الأمراء المصريون^(١)، واستفسروا منه عن أمور كثيرة في بلاده ولا سيما استخراج الذهب والنحاس. كما سألوه أحدهم عن سبب انتقال الملك إليه، فأجاب بأن ابن عمه السلطان السابق محمد بن قو كان يظن أن «البحر المحيط له غاية تدرك» فجهز مئات من السفن وشحنها بالرجال والمؤن التى تكفيهم سنين،

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٠٠-٢٠١.

وأمرهم أن يسيروا في المحيط وألا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفذ أزوادهم. فغابت السفن مدة طويلة ثم عادت منها سفينة واحد. ومثل قائدها بين يدي السلطان، فسأله عن أمر زملائه؛ فقال إن السفن سارت زماناً طويلاً وحتى عرض لها في وسط اللجة وادَّ له جرية عظيمة» فابتلع المراكب فلم ينج إلا هذا القائد بسفينته. وقد كانت آخر السفن؛ ولكن السلطان لم يصدق هذا الحديث؛ أو لعله أراد أن يتبين نصيبه من الصحة، فأعد ألفى سفينة للرجال وألفاً للأزواد؛ واستخلف ابن عمه منسا موسى في حكم البلاد؛ وأقلع بنفسه على رأس حملته الاستكشافية العظيمة. فكان ذلك آخر العهد به وبمن معه.



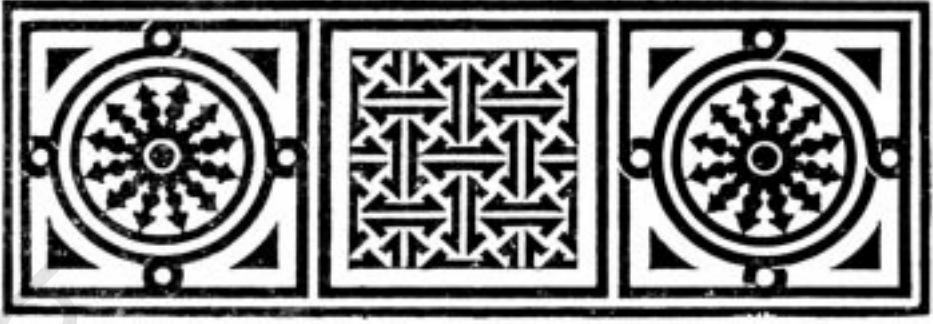


البيرونى

من العلماء المسلمين الذين كان للرحلات أكبر الفضل في علمهم أبو
الريحان البيرونى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م). وقد امتاز بالاطلاع الواسع،
وروح النقد العلمى الدقيق، والعمق في التفكير؛ فحار قصب السبق في
الفلسفة والفلك والعلوم الرياضية والتاريخ وعلوم اللغة وتقويم البلدان.
وامتدت شهرته في العصور الوسطى إلى أوروبا.

ولد البيرونى ونشأ في إقليم خوارزم. ثم أتيح له بعد ذلك أن يصحب
السلطان محمود الغزنوى في فتوحاته بالهند. وقام برحلات طويلة في تلك
البلاد، وتعلم لغاتها، وضبط مواقع مدنها، وأصلح بعض البيانات الجغرافية
الخاطئة، التى كانت مدونة عنها، وأفاد مما جمعه خلال أسفاره في تأليف
كتابه «تاريخ الهند»؛ ولا سيما أنه كان يقبل على البحث والتنقيب وكان
إسلامه لا يمنعه من الإخلاص في الحكم على غير المسلمين. والحق أن كل ما
كتبه عن الهند يشهد بسعة إطلاعه وكثرة تجاربه ودقة ملاحظاته، وبأنه جال
طويلا في تلك البلاد، فعرف آفاقها وخبر أهلها ودرس عاداتهم ومظاهر
حضارتهم.





ناصر خسرو

ولد ناصر سنة ٣٩٤هـ (١٠٠٣م) في بلدة من أعمال بلخ وتأدب أحسن تأدب. وقام في شبابه بأسفار عديدة في أنحاء إيران وتركستان والهند وبلاد العرب ثم استقر في منصب كبير في ديوان السلاجقة بمدينة مرو. وظل يعيش ترف وبطالة حتى سنة ٤٣٧هـ (١٠٤٥م)؛ فنراه يضحى بمنصبه ويبدأ حياة جد وسفر وعلم وتقوى. وهو يذكر في كتاباته أن السبب في هذا التحول رؤيا ظهر له فيها شيخ طلب إليه أن يكف عن شرب الخمر وعن حياة اللهو والمجون. فسافر لتأدية فريضة الحج وقام برحلات طويلة في الشرق الأدنى بين عامي ٤٣٧ و ٤٤٤هـ (١٠٤٥-١٠٥٢).

ولما عاد إلى وطنه كان قد ترك مذهبه السني، وأصبح من أشد دعاة الإسماعيلية والمتعصبين للفاطميين. ولا عجب فإنه غادر إيران في وقت انتشرت فيه الاضطرابات واشتد النزاع بين أمراء الأقاليم المختلفة؛ ورأى نفس البؤس في البلاد التي زارها ما خلا مصر، فقد وجد فيها رخاء عظيمًا وأسواقًا عامرة وتحفًا فنية نادرة وهدوءًا شاملاً. وظن ناصر خسرو أن الفضل في رخاء وادي النيل إنما يرجع إلى الدولة الفاطمية ومذهبها الإسماعيلي،

وأن هذا المذهب كفيل بإنقاذ العالم الإسلامي؛ فلم يلبث ناصر أن اتصل ببعض رؤساء الشيعة الإسماعيلية في مصر. والظاهر أن الخليفة المستنصر بالله أحسن استقباله وكلفه بأن يدعو لمذهب الإسماعيلية في خراسان. ولكن السلاجقة لاحظوا خطر هذا الدعوة فاضطهدوا ناصر خسرو، واضطروه إلى الفرار إلى بلاد ما وراء النهر، حيث توفي سنة ٤٥٣هـ (١٠٦١).

وخلف هذا الرحالة وصفاً دقيقاً لرحلته يحمل على القول بأنه كان يدون مشاهداته أولاً فأولاً وأنه كان يعنى بالاتصال بالشعوب التي يمر بها، ويتفهم مظاهر الحضارة التي يشاهدها. وحسبنا أن نشير هنا إلى وصفه مدينة القاهرة، وكلامه عن حضارة مصر في عصر الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، وعنايته بدراسة الأعياد والحفلات والصناعات والفنون والأسواق، وإلى وصفه الحرم الشريف بالقدس.

وقد ترجمت رحلة ناصر خسرو إلى الفرنسية. وأصبحت مصدراً أساسياً في دراسة الحضارة الإسلامية في الشرق الإسلامي في القرن الخامس الهجري والحق أو وصف مصر في رحلة ناصر خسرو يعد من أكثر المصادر التاريخية إمتاعاً وأعظمها شأنًا في بيان حال البلاد قبل القحط أو «الشدة العظمى» التي حلت بها في نهاية عصر الخليفة المستنصر^(١).

ولا عجب فإن هذا الرحالة لم يكن سائحاً عابراً؛ بل أقام في مصر نحو أربع سنوات ودون مشاهداته بدقة وإسهاب، فوصف الحياة العقلية وتحدث عن الأزهر ودار الحكمة وجامع عمرو وعن العلماء والفقهاء ودعاة الفاطميين.

(١) راجع كتابنا «كنوز الفاطميين» ص ١٠-١٦.

واستطاع أن يدرس الحياة الاجتماعية عن كثب. فذكر مثلاً أنه لم يعرف بلداً يستمتع بمثل ما ظفرت به مصر من الأمن والهدوء، وأن الصناع والعمال فيها يمنحون أجوراً مرضية فيقبلون على العمل بسرور وانسراح، على عكس ما في الأقطار الأخرى من السخرة وما إلى ذلك؛ كما أن مرتبات القضاة كانت كبيرة جداً، ليتم الاطمئنان إلى عدالتهم وبعدهم عن المؤثرات المختلفة ولتقل حاجتهم إلى الناس.

ولاحظ ناصر أن التجار في مصر كانوا يبيعون بأثمان محددة وإذا ثبت على أحدهم الغش فإنه يركب جملاً ويوضع في يده جرس يدقه ويطاف به في البلد ويرغم على أن يصيح بأعلى صوته: «لقد غششت وها أنا ألقى عقابي». جرى الله الكاذبين!». وكتب كذلك أن البقالين والعطارين وبائعي «الخردة» كانوا يأخذون على عاتقهم إعطاء الزجاج والأواني الخرفية والورق لوضع ما يبيعه فيها؛ فلم يكن على المشتري أن يبحث عما يجعل فيه ما يقتنيه.

ومما ذكره أن ركوب الخيل كان وقفاً على الجند والمتصلين بالجيش، على حين كان سائر الأهليين يتقلون على حمير ذات سروج جميلة. وكان في الفسطاط والقاهرة نحو خمسين ألف حمار للتأجير؛ يشاهد المرء عدداً كبيراً منها عند مداخل الشوارع والأسواق.

وأطنب ناصر خسرو في التدليل على ثروة البلاد ورخائها؛ ووصف مدينة القاهرة وصفاً شائئاً، وقدر أنها في ذلك الوقت (فيما بين سنتي ٤٤٩ و ٤٤١ هجرية أي ١٠٤٧ و ١٠٥٠م) كانت قد نمت عمارتها، وأصبح فيها ما لا يقل عن عشرين ألف دكان، كلها ملك للخليفة. وكثير منها يؤجر بعشرة دنانير في الشهر؛ وليس بينها إلا القليل تبلغ أجرته في الشهر دينارين. وكان

في القاهرة من الخانات والحمامات عدد وافر جداً وكلها ملك للخليفة أيضاً. والقصر الملكي وسط المدينة، بينه وبين الأبنية المحيطة به فضاء يفصله عنها. وأسواره عالية فلا يستطيع أحد رؤيته من داخل المدينة، وهو يبدو من خارجها كالجبل. ولم يكن بالقاهرة سور محصن؛ ولكن أبنيتها كانت أعلى من الأسوار المحصنة وفي كل منها خمس طبقات أوست؛ فكأنها القلاع الضخمة. وكانت البيوت مبنية بناء نظيفاً محكماً وكانت مفصّلاً بعضها عن بعض بحدائق ترويه مياه الآبار.

وانتقل ناصر خسرو بعد ذلك إلى وصف مدينة الفسطاط جنوبى القاهرة، حيث كانت الحركة التجارية والصناعية فأسهب في الكلام على عظمتها وبيوتها الشاهقة وجوامعها الكبيرة وحدائقها الغناء وصناعتها الزاهرة ووصف الثروة في أسواقها والازدحام فيها؛ وقال إن الحوانيت مملوءة بالسلع المختلفة والأقمشة الثمينة والذهب وسائر الخلى، حتى أن المشتري لا يجد فيها محلاً يجلس فيه.

وذكر هذا الرحالة في مواضع عديدة من حديث رحلته قصصاً تشهد بالتسامح الدينى الذى عرف عن العصر الفاطمى، وباطمئنان المسيحيين واليهود إلى عدل الخليفة وحكومته. ومن ذلك قصة تاجر مسيحي كان من أغنى الأثرياء في مصر؛ فلا يستطيع أحد أن يحصى أرزاقه وأملاكه وماله من السفن. وقد دعاه الوزير ذات يوم وأخبره أن الخليفة أقلقه وأهمه ما حل بالشعب من الضيق بسبب قلة المحصول ذلك العام، ثم سأله عن مقدار القمح الذى يمكنه أن يبيعه أو يقرضه، فأجاب التاجر بأن عنده من القمح ما يكفى مدينة مصر (الفسطاط) ست سنوات. وقد أعجب ناصر خسرو بما عرف عن الخليفة والحكومة من العدل الذى يسمح لمثل ذلك الرجل أن يمتلك مثل هذه

الثروة وأن يصدق القول بشأنها بدون أن يخشى مصادرتها أو ضياع حقه في جزء منها.

وامتاز ناصر خسرو بما عرف عن الإيرانيين من الذوق الفني الجميل؛ حتى أصبحت ملاحظاته وآراؤه عن الآثار والفنون في رحلته مرجعاً أساسياً للمشتغلين بالفنون الإسلامية. فنراه يتحدث عن مراكز الصناعات والفنون المختلفة، ويصف المساجد، والقصور والخانات وغير ذلك من مفاخر العمارة الإسلامية. وتحدث ناصر عن مدينة تنيس، وأعجب بما كان ينسج في أي مكان آخر قصب يوازيه في الجودة والجمال، وبقماش الأبوقلمون، الذي يتغير لونه باختلاف ساعات النهار، ويصدره المصريون إلى بلاد الشرق والغرب. كما أعجب بالكتان الذي كان بنسج في أسبوط ويبدو للعين كأنه الحرير.

وأشار إلى صناعة الخزف في العصر الفاطمي؛ فقال إن المصريين كانوا يصنعون أنواع الخزف المختلفة، وإن الخزف المصري كان رقيقاً وشفافاً، حتى لقد كان ميسوراً أن ترى من باطن الأثناء الخزفي اليد الموضوعة خلفه. وكانت تصنع بمصر الفناجين والقصور وسائر الأواني، وتزين بألوان مختلفة تختلف باختلاف أوضاع الآنية.

وكان ناصر خسرو شديد الإعجاب بسوق القناديل - بجوار جامع عمرو - فقال إنه لم يعرف مثله في أي بلد آخر، وإن التحف النادرة والشمينة كانت تحمل إليه من أصقاع العالم كله. وترجع هذه التسمية إلى أن سكان هذا الحي كان لكل منهم قنديل على باب مسكنه. والطريف أن ما وصل إلينا من التحف الفنية الفاطمية يؤيد تماماً ما كتبه ناصر خسرو في هذا الميدان. وقد فصلنا الكلام على ذلك في كتابنا «كنوز الفاطميين».

ولا ريب في أن هذا الرحالة أتيح له أن يدرس مصر دراسة طيبة خلال

رحلته فيها، وإن كان من المحتمل أن تعصمه الشديد للمذهب الفاطمي قد يكون من أسباب إفراطه في الإعجاب بثروة البلاد ورخائها وأمنها والتسامح الديني فيها وازدهار فنونها وعدالة النظم الاجتماعية فيها.

والحق أن ناصر خسرو لم يكن شديد الاهتمام بالنظم الاجتماعية في مصر فحسب؛ بل نراه يعرض لما يصادفه من هذه النظم في سائر البلاد التي تجول فيها. مثال ذلك ما كتبه عن إقليم الأحساء في بلاد العرب. فقد أعجب بنظام الحكومة القرمطية فيه. وذكر أنه إذا أعسر أحد السكان فيه أقرضوه مالا يستعين به على تدبير أموره، وأن الذي يستدين شيئاً لا يطالب بدفع ربح عنه، وأن الغريب الذي يحسن إحدى الحرف يقرض عند وصوله إلى هذا الإقليم مبلغاً من المال يستعين به على شراء عدده. وإذا تهدمت دار أو مطحنة، وعجز صاحبها عن إصلاحها، فإن حكام الإقليم ينيطون ببعض عبيدهم إتمام هذا الإصلاح من غير أجر. وللحكومة في الأحساء مطاحن تنفق عليها ويطحن الناس فيها قمحهم بالمجان. وقد سجل ناصر إعجابه بهذه النظم التي تذكرنا الآن ببعض الاتجاهات الاشتراكية في العصور القديمة وفي العصر الحديث.



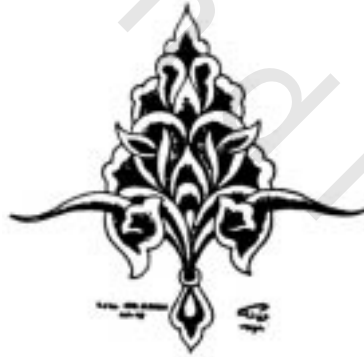
ودون ناصر في أخبار رحلته أن السفر في بعض أجزاء بلاد العرب لم يكن ميسوراً إلا إذا استأجر المسافر حارساً من أبناء القبيلة التي يمر بأرضها ليدله على الطريق ويحميه من اعتداء قطاع الطرق.

ومن طريف ما ذكره ناصر عن البيع والشراء في أسواق البصرة أن هذه المدينة كانت تقوم في أنحائها ثلاثة أسواق في اليوم الواحد، وأن رواد تلك الأسواق كانوا يودعون أموالهم عند أصحاب المصارف المالية ويأخذون منهم

إقراراً باستلامها ثم يدفعون قيمة كل ما يشترونه «شيكا» أو «إذنا» يقبض البائع قيمته من صاحب المصرف. وهكذا لا يستعمل التجار النقود في معاملتهم وإنما يستخدمون «الشيكات أو أذونات الصرف» يدفع قيمتها أصحاب المصارف^(١).

ولاحظ ناصر خسرو في مدينة طبس (بين نيسابور وإصفهان) أن المرأة لا تخاطب إلا زوجها أو قريباً لها وأنه إذا ثبت أن رجلاً وامرأة لا قرابة بينهما قد دار بينهما حديث فإن جزاءهما القتل.

وصفوة القول أن رحلة ناصر خسرو في الشرق الأدنى تميّط اللثام عن كثير من نظمته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي).



(١) انظر Nasiri - Khosrau: Sefer Nameh ص ١٢٩ .